الشارع

للأستاذ عبد الشافى اللبان

الشارع موضوع لحديث قد يبدو غريبا غير مألوف ، والواقع أن هذا ما شعرت به حين طلب إلى أحد الأصدقاء أن أحاول الكتابة عنه ، على اعتبار أنه المرآة التى تنعكس عليها حياتنا الخاصة والعامة على السواء ، بما فيها من شؤون وشجون ، أو على اعتبار أنه المظهر الخارجى البعيد عن الغش والخداع والتزييف لهذه الحياة .

ففى الشارع تبدو واضحة جلية أساليبنا فى السلوك والآداب ، فى المعاملة والتعامل ، فى التنزه والرياضة والترويح عن النفس ، كل ذلك دون طلاء أو إخفاء للحقائق .

والكلام عن الشارع موضوع شائق طريف ، يكفى فيه أن تستقطع جزءا من القاهرة وتجوس خلاله فى جولة قصيرة بقصد الملاحظة والدرس والاستنتاج ، ولنأخذ على سبيل المثل وتسهيلا لمهمتنا حى العباسية نقطة الابتداء فى جولتنا مارين بميدان فاروق ، فالحسينية ، فشارع فاروق ، فميدان الملكة فريدة (العتبة الخضراء سابقا) فميدان الأوبرا ، فشارع قصر النيل ، فشارع سليمان باشا حتى الإسماعيلية ، فهذا هو طريق اليومى إلى وزارة الخارجية .

والآن إذا تكرمتم بدأنا جولتنا وأظننا ، بدون تكليف أو توريط ، سنركب الترام فهو وسيلتنا العادية للانتقال ، وبطؤه يسمح لنا بملاحظة الأشياء فى هدوء يمكننا من الحكم عليها ، وسنكتفى بالوصول إلى نقطة اتصال شارع سليمان باشا بشارع فؤاد الأول ، وأرجو المعذرة فى تعديل برنامجنا خوفا من أن يطول بنا الوقت .

وما دام الترام سيؤدى لنا هذه المساعدة القيمة فمن حقه علينا أن نخصه بكلمة قصيرة ، خصوصا وهو يعتبر جزءا مهما فى الكثير من شوارعنا ، تجلس فيه ترى كما ترى فى الشارع معرضا حافلا من الأزياء بين العمامة والطربوش والقبعة والطاقية واللاسة والجلابية والقفطان والبدلة ، وكلها تكون مجموعة غريبة من الألوان تسقيها أهواء مختلفة ، وأذواق متباينة . واختلاف الزى مسألة تكلم الكثيرون فيها بحيث أصبح مجرد الإشارة إليها من القول المعاد ، ولكن هل لنا أن نرى فيها مقياسا لتنوع الآراء وتشعبها فيما بيننا ، وصورة لانشقاقنا وتفرق كلمتنا . أرجو ألا يكون الأمر كذلك ؛ وإلا فما أصعب مهمة حماة السلام عندنا ؛ وهو

اليوم أشد ما يكون احتياجا للتشجيع والتعضيد ، على أن مسألة الزى ليست بالتأكيد برهانا على وفرة أذواقنا وميولنا الفنية . فالصورة العامة التى يعطيها اختلاف الملابس حتى ولو كان كل نوع منها جميلا على حدته ، صورة لا يستريح النظر إليها ولا يقبلها أى ذوق فنى بحال من الأحوال .

لا تكاد تجلس فى الترام حتى يقفز إليك فى حركات بهلوانية غريبة جيش حافل من الشباب المفتول العضلات الضخم البنيان يبيعون إليك "حلاوة سمسمية" "إبر لوابور الجاز" أو "إبر ودبابيس" "أقلام رصاص" "ظروف وجوابات" "بسكويت وشكولاته نسله". وهكذا ينقلون إليك أسواقا كاملة لتجهز منها منزلك ومكتبك وترضى أولادك دون أن تتحرك من مكانك . وبعد ذلك يقولون إن فى مصر أزمة متعطلين . هذا ولا شك نوع من أنواع الاستجداء يحس بثقله كل من كتب عليه ركوب الترام وأقل منه أن تكون جالسا مطمئنا فى أمان الله فاذا بشاب أو طفل يقفز قافزا بين قدميك لتحجبه عن الكمسارى الذى لو رآه لنشبت بينهما مطاردة حامية قد تنتهى بحرب خاطفة تلقى بالطفل بين عجلات الترام .

وهكذا يعطينا الترام صورة لمشكلتين غير مشكلة الزى لا تزالان فى انتظار من يوفق لحلهما : الأولى مشكلة الباعة المتجولين على اعتبار أنها نوع من أنواع البطالة له أثره السيئ على الأمن والصحة والأخلاق العامة . والثانية مشكلة الأولاد فى الشوارع ومسئولية الأهل والحكومة فى صددها — هؤلاء الصبيان بعضهم مذنب وبعضهم معذور ، أما المذنب فاننا نرجو له ولأهله الهداية . وأما المعذور فله علينا حق المساعدة . المعذور يقوم من منزله فى امبابه مثلا ليعمل على كسب قوته فى العباسية على أن يتناول فى آخر النهار أجره اليومى دراهم معدودة لو صرفها فى الركوب لكان كمن يعمل بلا مقابل ، وإذن فعليه أن يجتهد فى استعمال الترام مجانا ليصل بهذه الدراهم سليمة إلى الأفواه الجائعة التى تنتظرها ، ولست أدرى كم للترام منذ إنشائه حتى الآن من أمثال هذه الضحايا : رجال وشباب وفتيان ، لم يفكر أحد فى شأنهم حتى اليوم ، مع أنه من المعروف فى كثير من البلاد أن هناك تذاكر مخفضة تصرف بين الساعة الخامسة والسادسة صباحا ، وهى الساعة التى يذهب العمال فيها عادة إلى أعمالهم ، ويستمر مفعولها حتى الساعة الثامنة مساء وهى المفروض أن يعود العامل فى أثنائها إلى بيته . وقيمتها لا توازى نصف القيمة العادية لتذكرة الذهاب ، فهل لم يحن الوقت بعد لإيجاد تذكرة ذهاب وإياب بثلاثة ملاليم مثلا تصرف للطبقات العاملة فى ساعات رواحها المبكر مساعدة لأفرادها المجدين المنتجين وتأمينا لحياتهم .

أظننا انشغلنا بالترام طويلا . فلنلق نظرة على شارع فاروق : فاللناس يمشون فى وسطه جماعات وأفرادا رغم الحملة التى نظمها قلم المرور واستعمل فيها السيارات والأبواق لدعوة

الناس إلى المشى على الرصيف؟ وما السر فى أنهم يرفضون الإصغاء إلى هذا النداء الحكيم مع مافيه من تأمين لحياتهم وأرواحهم؟ السر أن ليس هناك رصيف لشارع فاروق اللهم إلا بعض مساطب مقطعة يشغلها بعض المقاهى أو أصحاب المحال التجارية ومن عندهم من الزائرين. وإذن لا حيلة للجمهور فى أن يسلك طريقه على هذا النمط من الفوضى . وإذا كنا فى هذا الزمن الذى يعتبر المرور فيه من كبريات المسائل ، لا نؤمن بفائدة الرصيف ولا نريد أن نفرض أن للشوارع مهمة مدنية واجتماعية يجب أن تؤديها فما على أبواق قلم المرور إلا أن تتحلى بالصمت الكريم .

وعلى طول هذه الشوارع حتى شارع فؤاد ظاهرة تسترعى النظر : كثرة المقاهى التى تضج تكلايا النحل بالجماهير الصاخبة . على أن ضجيجها يختلف باختلاف المواقع ، فمقاهى شارع فاروق والعتبة تمتاز برنين الزهر وضرب قشاط الطاولة وكركعة الشيشة ، وهذه الكركعة قد تقابلها فى المنزل العامر زفرات الزوجة المهجورة أو عويل الطفل الصغير. أما مقاهى شارع فؤاد الأول فهى أقرب إلى السكون وإن كانت تشترك كزميلاتها فى جلب الحزن والأسى إلى قلوب كثيرة عزيزة وفى الاستخفاف بما وعيناه فى صغرنا من أن الوقت من ذهب ، وأنه كالسيف إن لم تقطعه قطعك . ومن المناظر المألوفة فى شارع فؤاد الأول كما فى شارع فاروق أو الأوبرا منظر العربات الكارو المحملة بجموع النسوة اللواتى يطلقن الزغاريد كصفارات الإنذار ابتهاجا بخروج أحد جبابرة المجرمين من سجنه كما لو كان أحد الغزاة الفاتحين ، هذا ولا شك تقدير لرسالة القضاء بعيد كل البعد عن العدل والإنصاف .

كما أنه من المتناقضات العجيبة أن تقف الحركة فى أحد الشوارع التى رأيناها انتظارا لمرور حمار — حمار أو جمل يتهادى إلى جانب سيارة باكار أو لنكولن ومع الجميع عربة كارو كالتى سبقت الإشارة إليها . كل ذلك على قدم المساواة بدون أى بروتوكول منظم لأسبقية المرور .

لقد رأينا فى جولتنا أن الشوارع كالأشخاص بعضها أسعد حظا من الآخر. فمنها الشوارع الشعبية كالحسينية وفاروق، ومنها الشوارع الأرستوقراطية كقصر النيل وسليمان باشا. وإذا سألنا عن سر هذا التباين فى الحظ وجدناه كتباين الحظ بين الأشخاص . مسألة يختلف الرأى فى تعليلها ، ولعلها كذلك لاتخلو من المحاباة والمحسوبية . ووجوه الشبه بين الإنسان والشارع كثيرة، فبعض الشوارع تولد سعيدة محظوظة فى فمها ملعقة من ذهب . ثم يجرى عليها حكم الزمن فتنزل عن مكانتها لغيرها من الحديث المستجد . كابن العائلة الذى جار عليه الزمان ، أو الوارث المتلاف الذى ينطبق عليه القول المأثور " أكرموا عزيز قوم ذل " .

فالعتبة الخضراء كان لها فى الماضى حظها الكبير الذى يحدثنا عنه المتقدمون من الأهل والأصدقاء . كانت مركز النشاط والحركة فى القاهرة بمنتدياتها للأدب والسمر وبمحلاتها التجارية الفخمة حتى جاء شارع فؤاد وسليمان باشا وغيرهما فانتقل شأنها من حال إلى حال.

كذلك يولد بعض الشوارع بتواضعا شعبيا لا يرجى له نهوض أو تغيير . ولعل شارع فاروق من أمثلة هـذا النوع من الشوارع . قانع بحاله ، ليس فيه أى عنصر من عناصر الكفاح أو العصامية وله على ما أعتقد بين الناس أشباه كثيرون .

وهناك بعد ذلك شوارع لم نرها للأسف فى جولتنا ، وهى الشوارع الأصيلة — تلك التى تظل شامخة بنفسها ، رغم ضيقها وتعرجها ، محتفظة على مرور الزمن بخصائصها ومزاياها المستمدة من ماضيها كذوى الحسب والنسب من الأفراد والعائلات ، فمن هذه الشوارع ما يصور لنا لونا عزيزا لطيفا من ألوان البيئة المصرية فى عصورها الماضية . كالخيمية وخان الخليلى مثلا إذ يعيدان إلى الذهن أسواق القاهرة عاصمة الخلافة ومقر الفاطميين . وهناك نوع آخر من هـذه الشوارع تلك التى تتصل بتاريخ البلاد والتى عاصرت عهود نهضتها وازدهارها وتقدمها كالقلعة مثلا التى تتصل بامبراطوريتين مصريتين مستقلتين قامتا على قوة العقيدة والخلق وكانتا مثلا رائعا فى الشهامة والفروسية والنبل وهما أمبراطورية يوسف صلاح الدين وكفاحها فى سبيل العقيدة الإسلامية ، وأمبراطورية محمد على الكبير وكفاحها فى سبيل العقيدة الوطنية وبناء مصر الحديثة ، وهناك أيضا حى الأزهر الذى ظل زمانا طويلا رأس مصر المفكر وذهنها الوقاد فى كفاحها الطويل وفى أزماتها وتطوراتها الفكرية والقومية .

هذه الأحياء من حقها علينا أن تظل مصونة معززة موفورة التقدير والاحترام لا تستطيع يد التغيير أن تمتد اليها و إلا فقدت شخصيتها وكانت كالعجوز التى خرجت عن وقارها إلى التصابى ، ومن حقنا على هذه الأحياء أن نستوحيها دروس الماضى وعظاته ، وكلها مفاخر لمصر العزيزة وحلقات تاريخية مجيدة ساطعة الجلال والعظمة قامت على قوة الإيمان والمبدأ والخلق والعقيدة ، وما أحوجنا إلى الاستماع إليها وتلقى خير الدروس عنها .

و إذا كان الشارع حقيقة مرآة لحال البلاد فكم نتمنى أن تنعكس فيه صورة شعب قوى نشيط منظم موحد الفكر والزى ، ثابت المبدأ عميق الإيمان بالله والوطن ، وأخيرا يقظ مسدد الخطى آمن العثرات ؟

عبد الشافى اللبان